القمر (١)

لمصطفى صادق الرافعي

إني لأراك أيها القمرُ منذُ عَقَلتُ معانيَ ما أرى، ولكني لم أعرف أنك أنت كما انت إلا بعد أن وضع الحبُّ فيما بينك وبين قلبي وجهَ من اهواها كما يوضع النقيرُ الى جانب كلة دقيقة

عندئذٍ وصلتك قرابةُ الجمال بوجهها فاتصل بك شعوري ، وبتُّ على بُعدك في أفلاك السماء تسبحُ ايضاً في دائرة قلبي ، واستويتَ مُتَّسِقاً كأن عملك الي أن تُتمّم فنَّ جمالها باظهارها أجملَ منك ، وامسيتَ عندي ولك مثلُها شكلُ السرّ المبهم المحيطِ بالنفس المعشوقة ، يدخلُ كلُّ جمالٍ في تفسيره ولا يكملُ تفسيره أبداً

ومن شَبَهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يُزهر اللحمُ والدم فيها فتكاد أشعتك تُقطَفُ منها القُبلة . ويكاد جوُّك يَتساقطُ من نواحيه تنهُّداتٌ خافتة. وتكاد تكونُ مثلها يا قمرُ مخلوقاً من الزهر والندى وأنفاس الفجر

* * *

أما قبلَ حبها فكنتُ أراك أيها القمرُ بنظرات لا تحملُ افكارا

كنتَ جبلاً ولكن جمالَ ورق الزهر الابيض . وكنتَ في رُقعتك المضيئة تُشبِه النهارَ مطويًّا بعضهُ على بعض حتى يرجعَ في قَدْر المنديل. وكنت ساطعاً

---

(١) هذه رسالة بل آية في البلاغة من كتاب (اوراق الورد) الذي وضعه الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ليكمل به كتابيه الشهيرين : رسائل الاحزان والسحاب الاحمر في فلسفة الجمال والحب . وقد تم وقدم للطبع وهو اربعون رسالة نشرنا منها ثلاثاً في السنة الماضية : الابتسامة والجاذبية والنغمي. ويقول لنا الاستاذ الرافعي ان اللغة العربية في كل تاريخها ليس فيها رسالة واحدة ذات قيمة في هذا الباب وان ابن قتيبة أورد في كتابه عيون الاخبار رسالة كتبتها مية الى صاحبها قابوس وجواب قابوس عليها وهما كالخطب المنبرية في الوعظ . . . .

في هذه الزرقاء ولكن سطوعَ المصباح الكهربائي على منارة قائمة في ماء البحر . وكنتَ زينةَ السماء ولكن كما تُناط مرآة صغيرة من البلور الى حائط فتُشبه من صفائها موجةَ ضوء أُمسِكت ووضعت في إطار معلق

وكنت يا قمر . . . كنتَ ملء الوجود ولكنك ضائعٌ من فكري

* * *

وأما بعد حبا فأسبتُ أراك أيها القمر ولستَ الا طابعَ الله على أسرار الليل في صورة وجه فانٍ كما أن كل وجهٍ معشوقٍ هو طابعُ الله على أسرار قلب .

فانت جميل جمالَ الجسم البَضِّ العارى ، تكاد تشبه صدرَ الحبيبة كشفتْ اعلاه فظهر في بَريق الفضة المجلوّة

وانت فانٍ تحاكي في ضوئك وجهها لولا انك بلا تعبير

وانت ساطعٌ بين النجوم لو تجسَّمتْ صورةٌ من اجل ضحكات ثغر معشوقٍ لكانتك ، ولو تجسمت القُبلاتُ المتغرةُ حول هذا الثغر لكانتْها

وانت زينةُ السماء ولكن السماء منك كمرآةٍ سحرية اطّلعتْ فيها حُوريّةٌ من حُور الجنة فأمسكتْ خيالَ وجهها في لجّةٍ من النور

وانت يا قمر . . . أنت ملء الوجود ولكنك أيضاً ملء من الحب

***

أتذكر أيها القمر إذ طلعتَ لنا في تلك الحديقة . . . وتَغشّيتَ بنورك عليها فصرتَ أرضَها وسماءها بروح الخُلد حتى وقع في وهمنا أنك وصلتَها من سحر أشعتك بطرَف من أطراف الجنة !

أتذكر وقد رأيتك تَسُفّ قريباً من الحبيبة تصبُّ عليها النور حتى خُيّل اليَّ أنها إحدى الحورالعين متكئة في جنّتها على رَفرفٍ خُضر وقد وقف لخدمتها قمر؟

أتذكر وقد لمستَ فكري بضوئك لمسةَ نور فأظهرتَها لي كأنها في جمالها الطاهر شكلٌ دينيٌّ وُضع ليكون مثالاً لعبادة القلب الإنساني ؟

أتذكر إذ نزلتَ علينا بآيات سحرك تخيّلتَ لي أن العالم قد تحوّلَ فيها هي الى صورة جميلة سَرْمَدية أُمست لي وحدي ، فملكتَ العالم كلّه في ساعة من حيث لم أملك الاّ الحب ؟

أتذكر ساعةً جئتنا بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جوٌّ من زهر وجو من قمر وجوٌّ من امرأة أجمل من القمر والزهر ؟

***

أترى يا قلبي كان في الوجود الذي حولنا أنوثةٌ وذكورة ، فهو بالقمر تحت الليل يعبّر عن نفسه تعبيراً نسائيًّا في منتهى الرقة لانهُ قوي شديد ، وفي غاية التفكير لأنه مشبوبٌ متضرّم ، وفي كمال الدلال لانهُ في كمال الاغراء ، وفي اقصى الحياء لانه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة ؟ تعبيرامرأة معشوقة جميلة ترفُّ بأنداتها وليس فيها الا صفاتُ النور ، وبالشمس على النهار يعبّر الوجودُ عن نفسه تعبيرَ رجُل مقدام ليس فيهِ غيرُ القوة والحركة والاندفاع . تعبير رجل جبّار يحمل عزائمه التي يحترقُ بها وليس فيهِ الا صفات النار ؟

أترى يا قلبي كان مدنيّةُ الحياة في النهار بصراعها وهمومها تحتاج الى تفسير طبيعي يفرُّ اليهِ اهلُ القلوب الرقيقة بضع ساعات . فلذلك يخلق لهم القمرُ صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد تلك الماديّة روحانيةَ الكون وروحَ العُزلة وسكينةَ الضمير ويبدو فيها كلُّ ما يقع عليهِ النور كأنه حي ساكنٌ يفكر ؟

أترى يا قلبي كان ضوء القمر صُنِع صنعةً بخصائصها ليبعث في القلوب معانيَ القلوب الروحية من الفكر والحب ، كما صُنع نورُ الشمس ليبعث في الاجسام قواها ومعانيها الماديّة من الحياة والدم ؟

أترى يا قلبي كان هذا القمر انما يلقي النورَ على الحلم الروحاني اللذيذ الغامض الذي يحلم بهِ كل عاشق من اول درس في الحب ساعة ترسل الحبيبةُ الى قلبهِ رسالة عينيها . ولا يحلم بمثله في غير العشاق الا أعظمُ الفلاسفة ، وفي آخر دروس فلسفته وبعد ان تكون الليالي الطويلة قد أطلت في سماء عُمره قمر الشيخوخة من شعره الابيض

أترى يا قلبي كان هذا القمر في الحب (تلسكوب) يُكبّرُ نورُه العواطفَ حين تبحثُ في ضوئهِ فلا يطلع على حبيبين الا كبّر احدهما في عين الآخر

أترى يا قلبي أنهُ وليس في الحب الا عواطف مُكبّرة ينيرها دائماً وجه الحبيب فلا بدَّ ان يكون وجهُ الحبيب ظالعةً فيهِ دائماً رُوح القمر ؟

أترى يا قلبي . . . ؟ آه أترى ؟

طنطا (طبق الاصل)